الدارة

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد الحادي عشر - المجلد الثالث ١٩٩٠م - ١٤١٢هـ

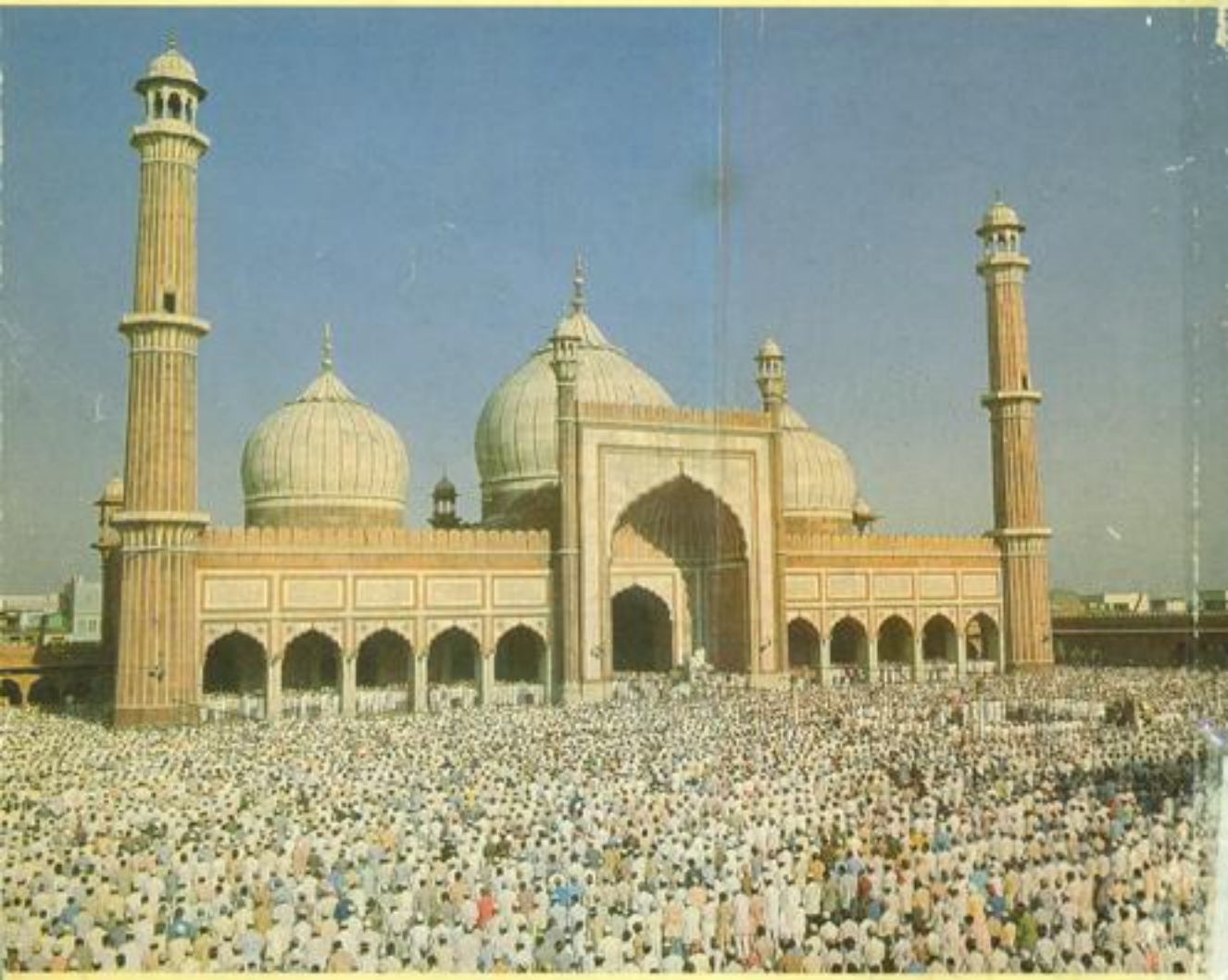

المسجد الجامع في دلهي - الهند

الموسم

فصلية
مجلة
مصورة تعنى بالآثار والتراث

شتاره ثبت ١٣٥٠٤٩
تاريخ ١ خرداد ١٣٨٩
٢١ /١٠/ ١٣٨٩

تصدر عن دار الموسم للإعلام
المراسلات : بيروت ـ لبنان ص.ب ١١٣/٥١٤٤

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

صاحبها ورئيس تحريرها
محمد سعيد الطريحي

الموزعون :

المملكة المتحدة ـ لندن ـ مكتبة الساقي
AL SAQI Books 26 WESTBOURN GROVE, LONDON W2 5RH TEL: 071-2298543, FAX: 071-2297492, TELEX: 919595G

دولة البحرين ـ مكتبة الريف الثقافية ـ شارع حد حفص ص.ب ٢٠٠٣٠ هاتف ٦٤٠٧١٣ ـ ٢٥٠٧٢٤ ، فاكس ٢٥٠٧٢٤ .

لبنان ـ المؤسسة العالمية لتوزيع الكتاب ـ بيروت ص.ب ٧٩٥٢ هاتف 835550-835820 تلكس FAGER-20398LE

سلطنة عمان ـ مكتبة المعرفة ـ مطرح ـ شارع الكورنيش ص.ب ٦٧٦٣ هاتف ٧١٣٦٠٧ فاكس ٧١٤٥٣٩

الهند NAGAFI HOUSE,159 Nishan pada rood Bombay - 400009 Tel: 6720350 - 8513299 - 861455

ايران ـ انتشارات صادق ـ تهران ـ خيابان ناصر خسرو ـ كوچه حاج نايب باساژ مجيدي تلفون ٣٩١٤٠١ ـ ٨٥٢٣٢٥

فرنسا ـ ABBAS AL BOATANI, 12 rue SADI CARNOT 92120 MONTROUGE Tel: 42536728

الاشتراك السنوي: للافراد ٤٣٠ وللمؤسسات ٤٥٠ يرسل باسم صاحب المجلة الى
بنك الاعتماد اللبناني فرع شتورة ـ لبنان رقم الحساب:
CRÉDIT LIBANAIS SAL AGENCE: CHTAURA, Lebanon No: 20.01.161.23138.00.10

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ملاحظات

حول الشيعة والعمل السياسي

خلال عرض لكتاب صدر مؤخراً بفرنسا بعنوان «الاسلام الشيعي ، معتقدات وعقائد» ، تساءل صحفي وكاتب فرنسي معروف : كيف يمكن لمعتقد من المفترض أنه رجعي حسب المعنى الأولي لكلمة معتقد ، كيف تمكن ليس فقط أن يعطي موجات ثورية ، بل أن يواصل في داخله حواراً فلسفياً متصلاً لا نجده لدى مذاهب إسلامية أخرى.

(راجع لوموند ، عدد يوم ١٩٩١/٥/٢٤)

زواج الشيعة بالعمل الثوري في العالمين العربي والاسلامي لم يبدأ مع انتصار الثورة الاسلامية في ايران واسقاطها لعرش الطاووس في نهاية عقد السبعينات بل يعود الى ما هو أسبق من ذلك بكثير . ويرد الباحثين في جذور الاعتراض الشيعي الى العقد الأول لظهور الاسلام ويتابعون تطوره على امتداد الاربعة عشر قرناً الماضية من تاريخ الاسلام فيحصون عشرات الانتفاضات والثورات التي قامت وهي تحمل لواء أهل البيت (ع) ولواء الشيعة الامامية التي ينتسب اليها الشيعة في ديار الاسلام المختلفة .

ولكننا في حديثنا هذا لم نذهب الى ما هو ابعد من الثلث الاخير للقرن الثالث عشر الهجري الذي يصادف النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي .

وحتى في هذا المدى الزمني يبرز الدور الشيعي في العمل الاصلاحي والثوري في المجتمعات العربية والاسلامية كدور المحرك الدافع للفكر الاسلامي على عمومه . ولعل الاتفاق على دور السيد جمال الدين الافغاني (الاسد آبادي) في النهضة الدينية والفكرية التي شهدها العالم الاسلامي في الثلث الاخير من القرن الثالث عشر للهجرة لا يضيف منه (أي في الاجماع على هذا الدور) سوى بعض النقاشات السطحية التي دارت وتحاول ان تنفي ما هو ثابت وأكيد من أن السيد كان من خريجي مدرسة أهل البيت ومن تلامذة الفقه الجعفري بالذات ، رغم أنه في دعوته كان يشدد على حرصه على وحدة المسلمين مما جعله لا يعير أي اهتمام لتأكيد شيعيته حتى لا يكون الاختلاف المذهبي سبباً في اضعاف هذه الدعوة .

وليس غريباً ان الاحداث الكبرى التي عاشها العرب والمسلمون في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان دور الشيعة فيه بارزاً بصورة خاصة .

وهكذا نجد انفسنا أمام سلسة من المعارك والثورات ، خصوصاً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كان للفقه الشيعي الدور العملي والنظري في ادارة شؤون المسلمين خلالها . ولعل ايران هي البلد المسلم الوحيد الذي شهد خلال سنوات قليلة ثورتين تقدميتين بأهدافهما دينيتين بمنطلقاتهما ووسائل عملهما . المقصود بذلك ما عرف باسم ثورة التنباك (١٨٩١) وثورة المشروطة (١٩٠٦) . وفي كلا الثورتين كان الفقه الجعفري يستعيد حيوية الفقه الاسلامي ، بشكل عام ، وقدرته على صياغة مواقف ثورية تجاه قضايا عصرية حديثة . ومن المعروف ان علماء الدين قد لعبوا أدواراً في تحركات لاحقة في بعض البلدان العربية والاسلامية ولكن لم يكن دورهم سوى دور ثان في تحديد أهداف الحركة وطرق تحركها . فعبد الله النديم (الوجه الشعبي الديني في ثورة عرابي في مصر) كان مجرد خطيب للثورة . والفكر الديني الذي كان إبان ذلك هو فكر السيد جمال الدين الذي كان في تلك الفترة منفياً عن مصر . طبعاً تأتي الحركة المهدية في السودان لتشكل الظاهرة شبه الوحيدة التي قادت عملاً سياسياً قبل الحرب الأولى على أساس دعوة دينية خارج الإطار الفكري الشيعي . والمهدية كانت وما زالت مجالاً لاجتهادات وأحكام متناقضة . على صعيد أخر كانت العراق أول بلد عربي يشهد مقاومة لجيوش الخلفاء التي كانت تخوض حربها ضد دولة المسلمين انذاك متمثلة بالدولة العثمانية . وليس من الصدفة بشيء أن تكون هذه المقاومة ، ومنذ لحظتها الأولى بقيادة المرجعية الاسلامية الشيعية في النجف . ولعل علماء الفقه الجعفري في الحوزة النجفية سجلوا الموقف الوحيد الذي يستعيد تاريخ الرسول وآل بيته وصحابته عندما شارك المراجع الكبار ميدانياً في القتال العسكري ، ولم يكتفوا بالتحريض والوعظ والافتاء ، وذلك في مواجهة الاحتلال البريطاني للعراق متناسين ما لحقهم ولحق المسلمين عموماً من مظالم على يد بعض سلاطين بني عثمان .

وبعد انتصار الحلفاء وزوال الدولة العثمانية نجد ان المقاومة ضد الاحتلال الانكليزي قد انتشرت أول ما انتشرت في كل من مصر والعراق ولكن اذا كانت في مصر ثورة اتخذت طابعاً وطنياً عاماً وقادتها شخصيات لا دينية مثل سعد زغلول ولعب رجال الدين دور الداعم والمساند ، فإن المرجعية في النجف هي التي قادت ثورة العشرين في العراق .

إن الدعوات الاسلامية في مناطق الشيعة لم تكن دعوات سلفية ، بما تمثله السلفية من جمود تجاه مستجدات العصر ، وليس بما تمثله من تمسك بالأصولية الدينية أكثر من ذلك أن هذه الدعوات لم يرتبط قيامها بوجود مركز دعم أو تمويل خارجي كما حصل لحركات سياسية اخرى اسلامية وغير اسلامية شكلت أموال النفط مثلاً أهم مصادر الدعم لها . والوضع الشيعي لم يستقل فقط عن سلطة المال النفطي بل استقل عن سلطة الحكم لهذه الدولة أم تلك من الدول العربية والاسلامية . وذلك في وقت وقع فيه العمل السياسي في البلاد العربية عموماً في شرك أحد التبعتين المالية والسلطوية وفي شركهما معاً .

ظاهرتا الانفتاح والاستقلالية اللتان ترسختا في اوساط العمل السياسي والثقافي والاجتماعي عند شيعة هذا العصر تعودان الى اصول لها جذورها في تراث الفقه الجعفري والمشهور منها بصورة خاصة هو ان هذا الفقه ابقى «باب الاجتهاد مفتوحاً» بعد ان تم اغلاقه منذ القرن الرابع الهجري لدى مدارس فقهية أخرى . وقد انتج بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً تعدد المجتهدين في كل عصر وعدم مأسسة

المرجعية (أي عدم تحولها الى مؤسسات) فلم تتحول إلى اكليروس على طريقة الكثلكة ولم تقع في قبضة سلطان أو حاكم .

وأبرز ما يميز مناطق التواجد الشيعي انها كانت مناطق حادة بوعيها السياسي تتأثر بالأحداث المصيرية التي مرت على العالمين العربي والاسلامي . ويذكر في هذا المجال أن الحركات الاسلامية خصوصاً والحركات السياسية عموماً في مناطق الشيعة لم تكن حركات انطوائية أو انعزالية فهي مثلاً لم تصطدم مع المد القومي في بعض مراحله حيث كان جانب التحرر من الاستعمار يحتل مكانة مهمة في حدوث هذا المد وكانت المناطق الشيعية متفاعلة بشكل بارز مع هذه المعركة . وعلى صعيد آخر لم تصطدم بالطرح الماركسي بالجانب المتعلق بتركيزه على الفوارق الاجتماعية وعلى عدالة توزيع الثروة ، رغم التناقض البين على صعيد العقائد والفلسفات .

وربما نتيجة لذلك نجد ان مناطق التواجد الشيعي كانت مناطق متفتحة سياسياً تنشط فيها مختلف التيارات السياسية والعقائدية التي كانت تجد في بينات أخرى مواقف انقلابية وسلبية . لذلك قام رفض الوسط الشيعي لبعض الأحزاب الحديثة على وعي بأهدافها من دون اغفال الظروف الموضوعية التي أدت الى قيامها ، وكان بالتالي رفضاً واعياً وايجاباً بمقابل ما عرفته مناطق اخرى من رفض سلبي ينطوي على حالة انكفائية ودفاعية . لذلك كان علماء الفقه الجعفري لايكتفون بمواقف المنع والصد بل يحاولون طرح البديل لا على صعيد الإطار التنظيمي بل أكثر على صعيد الطرح النظري . لذلك لم يكن غريباً أن تصدر كتب تتصدى للطروحات النظرية وبطروحات نظرية مقابلة . فظهرت كتب مثل كتاب «الحكومة الاسلامية» و«فلسفتنا» و«اقتصادنا» وغيرها الكثير من الكتب التي تحمل أسماء الفقهاء وكبار مدرسي الحوزات الدينية .

هذا التفاعل الايجابي ارتبط بظاهرة اخرى عرفتها الأوساط الشيعية في المجتمعات الاسلامية وهي ظاهرة التعددية السياسية والحزبية في هذه الأوساط وهذه ظاهرة حسبت من قبل البعض على انها ظاهرة سلبية تجاه القيم الدينية عموماً والاسلامية خصوصاً . ولكن المتأمل الحصيف يرى ايجابية هذه الظاهرة على القيم الدينية خصوصاً وعلى الطرح الاسلامي عموماً . فالتيار الديني الذي نشأ في الوسط الشيعي ولد في قلب الصراع الفكري والسياسي ولم يأت كمجرد رد فعل على التيارات الأخرى أو تلبية لموقف دفاعي تجاهها كما حصل في الثلاثينات في أكثر من بلد عربي . الواقع ان الوسط الشيعي عرف تصارع التيارات السياسية وانقسمت كثير من البيوت الشيعية في انتمائها السياسي على عدد هذه التيارات بحيث نجد الاخوة الذين ينتمون الى هذه التيارات المختلفة . والحياة الحزبية بعمقها التي عرفتها الأوساط الشيعية لا يشابهها إلا ما حصل في النخب المدينية في مصر وفي القاهرة بالذات ومنها انتقلت إلى بعض الاوساط في النخب المدينية السودانية .

ولا شك أن النشأة الخاصة للحركات السياسية الاسلامية في الأوساط الشيعية منحتها مميزات خاصة منها مثلاً ان الموقف الاصولي عند الشيعة لم يتسم بالجمود والتقوقع تجاه مستجدات العصر ، فرغم أن الحركات السياسية الاسلامية تمسكت بالاصول من حيث بنائها الفكري والمفهومي فإن هذه الحركات تميزت بحداثة الموضوعات التي تطرح وبجدة النتائج التي تصل اليها خصوصاً على صعيد مؤسسات الحكم وبناء السلطة . وهذا انعكس مؤخراً في تجربة الثورة الاسلامية في ايران حيث أمكن

بناء مؤسسات سلطة حديثة مثل رئاسة الجمهورية والبرلمان (مجلس الشورى) بالاستناد الى أصول فقهية والى جانب مؤسسات متعارف عليها تقليدياً مثل الولي الفقيه وقامت بينهما مؤسسات أخرى بأسس تقليدية ولكن بمهمات حديثة ومنها مجلس الخبراء . وكان لذلك انعكاسه ايضاً في لبنان منذ أوائل السبعينات من خلال المؤسسات السياسية والاجتماعية التي أنشأتها الطائفة الشيعية والتي انبثقت عنها حركة أمل السياسية في ما بعد .

ويمكن الحديث عن سمة اخرى برزت في العمل الشيعي عموماً وهي ان استقلالية العمل عن الدعم والتمويل الخارجي وذلك في ظل تعددية المجتهدين والمراجع كان أمراً ممكناً طوال الفترة الماضية من تاريخ الشيعة . ولأن الشيعة لم يحسبوا على أي سلطة سياسية في العصور الحديثة فقد أمكن تكرس هذا الأمر الذي لم يختلف كثيراً حتى بعد قيام الجمهورية الاسلامية وفق المذهب الجعفري . وعدم الاعتماد على دعم خارجي أدى الى أن يستمر الموقف السياسي عند الشيعة مرتبطاً بحدود بعيدة الى الأصول الفقهية التي تحدد مثل هذه المواقف ، الأمر الذي أدى الى استمرار تمتع الفتوى بقوة وتأثير كبيرين . وهذا بارز في عدة محطات من الحياة السياسية في المجتمعات التي يعيش فيها الشيعة . فالشيعة عرفوا أقل من غيرهم بكثير ظاهرة وعّاظ السلاطين . وكما انهم لم يعرفوا مركز مفتي البلاد الذي غالباً ما كان يقع تحت سيطرة السلطة السياسية وتصبح فتاواه ومواقفه منبثقة عن مصلحة الحاكم وليس عن الأصول الفقهية التي ربما جرى تكييف بعضها واهمال بعضها الآخر كي يصبح بالامكان تقديم الفتوى المطلوبة .

والشيعة لم يكونوا في المعارضة المطلقة الدائمة ، كما قد يظن حتى بعض الشيعة ، رغم انهم لم يكونوا بصورة عامة في موقع الوفاق مع السلطة وكانت تحكم الأمر ازدواجية معقدة . من جهة لم يعترف الفقهاء الشيعة بصورة عامة بشرعية السلطة ومن جهة ثانية كانوا يرون من واجبهم الدفاع عن حياض الاسلام كلما تعرضت لمخاطر خارجية . وهذا بالضبط موقفهم منذ النصف الآخر من القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الاولى فهم لم يعلنوا الثورة على السلطنة وحاربوا الى صفها ضد جيوش الحلفاء . وفي الوقت نفسه كانوا من أبرز الداعين الى اصلاحها . وبشكل عام كان الشيعة يأنفون العمل في المؤسسات التابعة للدولة . وازداد الأمر تعقيداً بعد الحرب العالمية الاولى ، فإذا كان الموقف واضحاً برفض الانتداب والتعامل معه فكيف يكون الموقف من الحكومات التي قامت في ظل الانتداب وأخذت تدريجياً تبرز كحكومات مستقلة عنه ؟ ومن المعروف ان الدول المنتدبة أقامت حكومات ذات لون طائفي في معظم البلاد العربية خصوصاً في منطقة الهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق) حيث للشيعة وجود مهم في قطرين من أقطار هذه المنطقة ، العراق ولبنان . الموقف العام كان يميل الى الاستمرار في مقاطعة العمل في خدمة المؤسسات الحكومية وفي معارضة الحكومات بدرجة تبعيتها للدول صاحبة الانتداب . وإذا كان الوجه الثاني لموقف الشيعة تشترك فيه غالبية القوى السياسية الوطنية في المنطقة فإن الوجه الأول يشكل نقطة افتراق مهمة ليس مع تلك القوى السياسية بل مع تاريخ الشيعة نفسه .

في ايران مثلاً تكرست استقلالية الجسم العلمائي عن السلطة والأمر نفسه حصل بصورة أو بأخرى في العراق من خلال الحوزة النجفية وفي لبنان من خلال مدارس جبل عامل والعلماء الرواد